الإبداع الأدبي..
حق التجريب المستمر

التجريب هو أبداً طريق الإبداع والتجدد.. وفي الأدب يبدو التجريب للأشكال الممكنة ولاستكشاف الطاقات الكامنة في اللغة عبر أنماط جديدة من الأداء، نوعاً من الضرورة الواجبة، حيث لا شرط هنا إلا شرط التقيّد بالأسس العامة للبنيان الثقافي القومي الخاص بالأمة، وبالطبع.. يستلزم ذلك شرط التقيد بالتوجهات التي تمليها ظروف العصر حرصاً على تمايز الهوية وضماناً للبقاء والازدهار في مستقبل حضاري يبدو مقلقاً إلى حدّ كبير..

والتجريب ليس لعبةً فنية، إنه محاولة لافتتاح آفاق جديدة تحلق فيها الروح بالحوار مع (الآخر/ المتلقي) قبل كل شيء.

وطيلة التاريخ الأدبي العربي كان التجريب طريق الإبداع الحقيقي، مع الاعتراف بأنه لا بد من برهات ثبات لأساليب الأداء وأشكاله بين فترة تجريب وأخرى. والمجربون الكبار هم الذين لا يزالون يؤثرون في العقول كما في القلوب دون سواهم بصورة عامة. فالجاهليون انحدروا من تجريب لما هو سابق عليهم مما توصله الدراسات الجادة للهّجات العربية القديمة إلى الشعر الأكادي.. وليس امرؤ القيس – في النظرة الموضوعية المعمقة– إلا تجاوزاً للمهلهل.. وليس بشار وأبو نواس وابن الرومي.. وأبو تمام.. والمتنبي.. وسواهم ممن يصعب عدّهم هنا

إلا مجربين كباراً من أجل تجاوز المألوف السائد في الأداء الشعري في زمنهم، وافتتاح الآفاق الجديدة التي سبقت الإشارة إليها.

وفي العصر الحديث ما كان أصحاب مدرسة الديوان – شكري على وجه الخصوص– وكبار المهجريّين ، وأعلام مدرسة أبولو، وأعلام "قصيدة التفعيلة" وأعلام "قصيدة النثر"، إلا استمراراً طبيعياً لأسلافهم من المجربين المشاهير. وهذا حق وواجب في آن معاً، ولهما طابع الضرورة الحيوية فعلاً.

ولنعد قليلاً إلى الأسلاف. فمنذ الجاهلية اشتكى زهير من قلة التجديد الذي لا يتم إلا بالتجريب إذ قال:

ما أرانا نقول إلا معاراً

ومعاداً من قولنا مكرورا

ولاحقاً فرض "رُؤبة" الارتجاز كأحد أشكال الشعر وأساليبه المتميزة.

وفرض مسلم وابن المعتز صيغ أداء مجدّدة تقوم على الإكثار من البديع.. وحاول أبو العتاهية أن يستنبط أوزاناً من أصوات المشاغل الحرفية. أما أبو نواس فكان مجدداً مذهلاً في الصوغ والمعنى. وأما أبو تمام فأمر تجديده وتجريبه أشهر من أن يذكر هنا. والمعري هو القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانهُ

لآت بما لم تستطعه الأوائلُ

وقبله قال المتنبي في لغة شعره:

أنام ملء جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

وابتكر الأندلسيون من ألوان الموشح وأوزانه ما قال ابن خلدون عنه: (إنه يصعب حصره) مع العلم أن الموشح ولد في المشرق وهذه الأمثلة غيض من فيض.

التجريب الذي هو طريق التجديد هو إذاً سمة الحيوية في الأدب العربي، وفي الشعر العربي على وجه الدقة. وهو ليس حواراً مع (الآخر المتلقي) في أفق جديد ومن منظورات جديدة يفرضها تطور الحياة والمجتمع وحسب، بل هو أيضاً توكيد على الأصالة، وهي تفرع وتتفتح، بقدر ما هو خرق لكسل العقل والروح المستسلمين لثبات المكرور المعاد الذي يصادر وجوب المغامرة من حيث كونه مريحاً، لأنه متفق عليه بالتلقين، ولأنه (عمّ حتى خمّ) على حد تعبير الأديب اللبناني المرحوم مارون عبود.

ولعل جيل الستينيات والسبعينيات لم يعانِ كثيراً من "تقويمات" المتزمتين المستسلمين لقداسة الأشكال الماضوية، رغم أن تلك التقويمات أوصلت أصحابها إلى درجة اتهام أعلام ذلك الجيل بالعمالة، وبأن تجريبه وتجديده هما جزء من "مخطط إمبريالي" –أي نعم!! لتدمير الثقافة العربية!!.. وما حمى تجريب ذلك الجيل هو منطق تلك المرحلة ذاتها ومقتضياتها: إذ كانت مرحلة صعود في الروح القومية والاشتراكية للأمة العربية، وكان التوق إلى تحديث سائر البنى الاجتماعية /الاقتصادية/ السياسية/ الثقافية.. هو المحرك الفعال لوجود سائر مجتمعات الأمة.

ولعله من سوء حظ جيل أواخر الثمانينيات والتسعينيات أن تخمد روح تلك المرحلة، وأن يبلغ تردي الأوضاع العربية في ظل المستجدات العالمية الراهنة درجة اليأس الذي يوشك أن يصير قاتلاً.

إن على هذا الجيل أن يجرب وأن يجدّد، ولنقل: عليه أن يخوض مغامرته الأدبية /المعرفية/ الروحية الخاصة وسط منعكسات هذه الحال من التردي المؤئس الصعب. ومن المؤسف أن عليه أن يواجه استشراء شراسة المتزمتين من (المتعلمين، النظاميين) والاتهاميين المفتقرين إلى الحدود الدنيا من الموهبة إلا موهبة النقل الذي يشتق من (ثقافة التلقين)، مصادراً كلّ حوار، رافضاً إلا ما سبق إنجازه قبل الخمسينيات على اعتبار أن (كل ما يمكن قوله قد قيل)!!..

وما أشبه أولئك النظّامين الاتهاميين بأولئك الأصوليين الذين يكفرون من عداهم أو خالفهم الرأي، ويهدرون دمه بحجة أنهم الأوصياء على إرادة الله في الخلق!!

لقد سمعت شتامين كثيرين للتجارب الشعرية الحديثة، وحجة الشتيمية أنهم لا يفهمون تلك التجارب ولا يتذوقونها. وتقرأ للمتشاعرين منهم فتتذكر قول زهير: "ما أرانا نقول إلا معاراً"!! ويتساءل المرء: –ترى، ما الذي يحوّل المتعلمين إلى نظامين رديئي النظم؟!.. وما الذي يحوّل هؤلاء النظامين إلى شتامين لسواهم أو راجمين بالحجارة وهم يعرفون أن "بيوتهم من أردأ الزجاج"؟!

يبدو لي أن ثمة فراغاً روحياً عميقاً يسبب أزمة عامة.. والأزمة هذه تدفع المتعلمين –بمختلف أشكالهم وتسميتهم

وشهاداتهم –في أكثر من متاهة:

١- متاهة التعويض عن الإحساس يثقل وطأة الفراغ الروحي تعويضاً يدعي فيه أولئك المتعلمون –وهم في الحقيقة أقرب إلى الأمية الثقافية– أنهم "مبدعون!" فيكتبون في كل شيء. وينشرون شذرات مما صار منسياً بفضل سهولة النشر واستسهال "الكلام" والتأدب والتعالُم والتشاعر، إذ إن الكلمة المقدسة ما عادت مقدسة في فترة الاستهلاك المبتذل من هذه الحقبة الحضارية المنحطة.. وهكذا تكثر (العملة الأدبية وغير الأدبية الرديئة) وتقل العملة الجيدة حتى تندر، وتنطرد بفظاظة من السوق! .. أما "المبدعون!" الانحطاطيون الجدد فيتورّمون وينتفخون ويتفيهقون ويتبجحون متبخترين كالطواويس وإن يكن ريشهم من شمع!! أليسوا، كما يريدون، وحيدين في الساحة؟!

٢- نظراً لانعدام أي إبداع لدى هؤلاء، في حقيقة الأمر، فإنهم يغرقون في متاهة النبش العشوائي لما يسمونه تراثاً، وهو ليس إلا شكلانية بعض الشذرات التراثية. ولأنهم أعجز من أن يفهموا حقائق التراث ويوظفوها لخدمة الحاضر فإنهم يتحولون إلى "خابطين" متخبطين، ثم إلى متزمتين أو أصوليين زائفين! فما يعرفونه هم من التراث مقدس في ذاته ولذاته.. وليس هو ذلك التراث الذي ليس إلا محصلة الفعالية البشرية لمجتمعاتنا القديمة وهي تتطور في الزمان والمكان منتجة ما يتلاءم مع ظروفها، فنكون نحن ورثة ما يلائمنا من تلك المحصلة وما يخدم بقاءنا وتطورنا وفقاً

لتحديات عصرنا، دون أن يكون شيء من ذلك التراث مقدساً في ذاته ولذاته!

٣- حين يواجه هؤلاء المدّعون من المتعلمين أشباه الأميين حقيقة أنهم عاجزون عن فهم الحاضر وعن ربطه المفيد بإنجازات الماضي فإنهم يتحولون إلى الدوران في متاهة الشتائم لكل من يجرب أن يستحدث غير ما هم قادرون على الدخول إلى عوالمه بسبب تزمتهم وزيف تعاملهم وتأدبهم ونظمهم.. أي بسبب عجز عقولهم عن تقبل تلك المقولة التي يلخصها قول منسوب للإمام علي كرم الله وجهه: (ربوا أبناءكم على غير ما ربيتم عليه، فإنهم مخلوقون لزمن غير زمنكم).

وبالطبع الشتامون ليسوا إلا جزارين عاجزين عن ممارسة الجزارة!!

حقاً، إن الإبداع اليوم- وفي العالم كله -مصابٌ بأزمةٍ خانقة، وأقصد هنا الإبداع الفني: الأدبي عموماً، والشعريّ على وجه التخصيص.. وأسباب ذلك تكمن في البنية الحضارية الإجمالية الراهنة وتقلبات حركتها تقلباً إحباطياً، حيث يصير البشر أقرب إلى السلع الأكثر استرخاصاً وابتذالاً من وجهة نظر المهيمنين على حركة هذه البنية الحضارية والممتلكين للقوى المحركة لها. وفي العالم الثالث "حسب التعبير القديم"، وفي الوطن العربي على وجه الخصوص، تبدو أزمة الإبداع أكثر حدة، ويبدو الشعر -حصراً- كأنما هو يموت. إن الاجترار و(اللعي الفارغ) يبدوان سائدين في أكثرية نماذج أنماط القصيدة الثلاثة لدينا: القصيدة التقليدية- قصيدة التفعيلة -ما يسمى قصيدة

النثر.. وأنا بخصوص الأخيرة لا أتحفظ إلا على التسمية التي تبدو لي متناقضة بذاتها. فلماذا أصحاب التفعيلة وقصيدة النثر هم المتهمون حتى بالعمالة، وهذه اتهامات أخذت تتجدد وتحتدّ؟! ولماذا –بالمقابل– لا يتهم أصحاب النزوع إلى القصيدة التقليدية – وجلّهم نظامون واجترايون – بأنهم من أنصار الأصولية الزائفة التي تخرب الثقافة العربية، بل هي في بعدها المتظاهر بالتدين، تدمر الحياة المجتمعية العربية، أو إنها تسعى إلى ذلك، في عديد من الأقطار العربية؟!

في اعتقادي أن من حق الجميع أن يجربوا ما يشاؤون من أشكال شعرية، وباستمرار.. ثم يحكم على كل نص بذاته وفق منهج نقدي موضوعي ملائم، دونما شتائم ولا اتهامات مسبقة.. فالتجريب هو طريق التطور والتقدم، وهو دليل على حركة عقل نشيط، والحركة دليل حياة، والحياة لا بد لها من التجدد. أما الاجترار فهو دليل سيكون العقل، والسكون موت. فحق التجريب هو حق الحياة الساعية إلى التطور والتجدد. وحين يخطئ المجربون يقول النقد وحده (لا)، ولكل نصّ بمفرده بعد القراءة المنهجية المدققة.

فليوقف الشتامون شتائمهم، ولتكن حرية التجريب معترفاً بمشروعيتها، إذا كنا نريد لأدبنا أو شعرنا ألا يموت.

❑❑